الحلقة التاسعة

فى بؤر الضياع بين البكّائين والمتباكين

وضاع الأندلس وتحوّل ما تبقى منه إلى رُفات يندبها البكّاؤون ، ولِمَ لا ؟ المتباكون ، كل يبكى على ليلاه أو يتباكى عليها ، فهذا ارتبط بالأرض التى روتها دماء عشائره وقبائله ، يفرز عليها الأنّات فى صمت وإصرار ، وذاك يتباكى على ما أضاعه بيده وافتقده بخيانته أو بجهله أو تجاهله ، وتوالت مواكب البكّائين والمتباكين على حد سواء ، صاحبت مسيرة الأندلس عبر ما يزيد عن أربعة قرون قبل ضياعه لتستمر قروناً وقروناً حتى يومنا هذا ، شاعر أو أديب يرثى حاله بحاله ، أو يبكى على ماضيه فى حاضره ، أو على حاضره فى ماضيه ، وعلينا دون أن نغوص ونتحرى الجزئيات فى التوثيق والمتابعة - فهذا عمل نتركه للمتخصصين والمختصين فى هذا المضمار - أن نضرب أمثالاً برزت هنا وهناك من هؤلاء تطالعنتا منذ سقوط الخلافة ومعاصرة لها ، من الهوزانى وابن العسال ، مروراً بابن خفاجة و بن الأبار ، ووقوفا عند أبو لبقاء الرندى لما تركه من أنّات فى الأعماق يرددها الحاضر كما رددها الماضى ، ووصولاً إلى لسان الدين بن الخطيب والقيسى وابن عاصم حتى ابن الأزرق . لنرى أمثلة أخرى نشير إليها عرضاً ، ونلتقى فى النهاية مع مَن عاشوا عمق المأساة من المورسكيين وأصداءهم فى كل مكان فى ديار الإسلام ، وبخاصة البقاع التى ألقى إليها بما تبقى من آثار المأساة ، واختلط الباكى بالمتباكى ، وتلك الأيام ندوالها بين الناس .

نُفصّل القول مكررين ما أشرنا إليه سَلَفاً من أننا لن نغوص فى رصدنا للبكّائين والمتباكين « لتنحر كالأعماق » فى كل الأبعاد والأزمنة ، وإنما سنكتفى بالذكر عابرين للتذكير بما ورد على ألسنة هذه النماذج باكية أو متباكية عبرة لمن يعتبر .

فهذا الهوزانى أبو حفص عمر بن الحسن ، صديق المعتضد بن عباد وضحيته فى نفس الوقت (المتوفى ٤٦٠ هـ / ١٠٦٨ م) ، يحث ابن عباد عقب أحداث هجوم النصارى على بربشتر فى قصيدة جاء فى مطلعها :

أعباد جل الرزء والقوم هجع على حالة من مثلها يتوقع

(« الذخيرة » لابن بسام ، جـ ٣ ، ق ٢ المجلد الاول ص ٨١ وما يليها)

ويطالعنا ابن العسال (المتوفى فى ٤٨٧ هـ / ١٠٩٤ م) ، هذا الفقيه أبو عبد الله ، يحث أهل الأندلس على الجهاد بعد سقوط طليطلة ورحيله عنها إلى غرناطة بأبيات جاء فيها :

يا أهـل أندلس حثوا مطيكم فما المقـام بهـا إلاّ مـن الغلط

الثوب ينسل من أطرافه وأرى ثوب الجزيرة منسولاً من الوسط

(« أزهار الرياض فى أخبار عياض » للمقرى جـ ١ ، ص ٤٦) .

ولم تقدم لنا فقط هذه المصادر المعروفة انعكسات البكّائين وزفراتهم ، بل هناك مرثيات ضائعة نُقلت إلى اللُّغة القشتالية وأثبتها بعض المستشرقين كما هو الحال فى المرثية التى نُسبت إلى ابن علقمة محمد بن الخلف الحسن إسماعيل الصدفى (المتوفى فى ٥٠٩ هـ / ١١١٦ م) ، وقد أثبتها له دوزى المستشرق الهولندى المعروف على أنه صاحبها ، ومطلعها بالعربية كما نقلت : « بلنسية ... بلنسية ... مصائب تحدق بك ، أنتِ تحتضرين ، وإذا قُدِّر لكِ النجاة فسيراه عجيباً مَن يعيش ويراكِ » .

(ترجمة طاهر مكى « دراسات أندلسية » ص ٢٧٨ ومايليها) .

وها هو ابن خفاجة أبو إسحاق إبراهيم الأندلسى (المتوفى ٥٣٣ هـ / ١٢٠١ م) ، متأسياً بدوره على بلنسية حينما أحرقها النصارى عند خروجهم منها (عام ٤٩٥ هـ) فى أبيات استعاض من أبى تمام صدر لبيت منها حين قال :

أرض تقاذفت الخطوب بأهلها وتمخضت بخرابها الأقدار

كتبت يد الحدثان فى عرصاتها « لا أنتِ أنتِ ولا الديار ديار »

وعجز هذا الشطر الأخير من البيت : « خف الهوى وتولتَ الأوطار » عند أبى تمام .

(« ديوان ابن خفاجة » تحقيق غازى ، الطبعة الثانية ص ٣٥٤)

ومع بلنسية نستمع إلى أنّات ابن الأبار أبو عبد الله محمد القضاعى البلنسى (المتوفى ٦٥٨ هـ / ١٢٦٠ م) - وقد حرقت كتبه فى حصارها وقادته قدماه إلى تونس استنجاداً حيث كانت القصيدة المعرورفة ، وهى كثيراً ما تسمعها الآذان فى مواقع الاستنجاد والإغاثة إذ يقول فى مطلعها :

أدرك بخيلك خيل الله أندلس إنَّ الطريق إلى منجاتها درسا

وقد ورد « إنَّ السبيل » (يراجع ديوان ابن الأبار ص ٣٩٥ وما يليها) .

وهكذا بلنسية كانت مدعاة لاستنفار ذهنية الأدباء والشعراء وهى تعانى كما كانت تعانى بقاع متعددة من الأندلس ، تستقطع وتبتر الواحدة تلو الأخرى ، وهذا ما حدى باسم معروف وشهير ، يرد على الألسنة حينما تهب الفجائع وتحل النكبت يستعاد مقولته الشهيرة فى قصيدته :

لكل شىء إذا ما تم نقصان فلا يُغَرُّ بطيب العيش إنسان

إنه أبو البقاء الرندى ، وورد عند ابن الخطيب علـى أنه « يزيد بن موسى بن أبى القاسم بن على » ، ويكنيه المقرى فى أزهار الرياض بأبى البقاء (المتوفى فى ٦٨٤ هـ / - ١٢٨٥ م) ، والمناسبة التى قيلت فيها هذه القصيدة الشهيرة هى كما أوردته المصادر ما اقتطعه فرناندو الثالث وحاكمه الأول من أرض الأندلس المسلمة ، وإن كنا نكتفى بهذه الإشارة إلى هذا البكاء لنعود إليه فى الملحقات تفصيلاً ، فذلك لنستعيد شهيراً آخراً غرناطياً يلتقى معه فى الرثاء ، ولِمَ لا ؟ فى شهرة ما ورد فى موشحته الرثائية :

جادك الغيث إذ الغيث همى يا زمـــان الوصـــل بالأندلس

لـــم يكـــن وصلك إلاَّ حلماً فى الكرى أو خلسة المختلس

هذا لسان الدينَ بن الخطيب ذو الوزارتين محمد بن عبد الله بن سعيد السلمانى اللوشى (المتوفى ٧٧٦ هـ / ١٣٧٤ م) ، والذى يُعتبر بحق من العقول المتميزة والمتواثرة فيما قيل عنها ، فهو صاحب الإحاطة وبحق أحاط بعصره ، وكان بذلك صورة معبِّرة للمعاناة المزدوجة منه إلى عصره ومن عصره إليه ، واستمرت مسيرة البكَّائين لتعبر الأيام والسنين ولا تتوقف ، فهذا محمد ابن عبد الكريم القيسى الأندلسى البسطى وقد شوهد عام ٨٣٥ هـ - كما ورد فى مصادر مختلفة - يرثى بدوره عصره الذى عاش فيه هذا الأندلسى المزق وهو يتراجع ، يتأسى على شهداء « كائنة لورقة » فى القرن التاسع الهجرى كما تأسى غيره من قبل على ما استشهد فى معارك المواجهة والدفاع عن المعاقل ، وهى تهتز إذ يقول القيسى :

لمصاب أندلس تصوب الأدمع ولما جـرى فيها تذوب الأضلـع

فلها مـــع الأعـــداء حال تفزع نقضى بحسرة مَن يرى أو يسمع

(« البسطى آخر شعراء الأندلس » تقديم ابن شريفة ص ١٧٢) .

وهذا ابن الخطيب الثانى كم كان يُنعت ونعنى به ابن عاصم الغرناطى أبو يحيى ، قاضى الجماعة بغرناطة ، عاش فى القرن التاسع الهجرى / الخامس عشر الميلادى ، حيث شوهد بدوره - كما ورد بعض المصادر - عام (٨٥٨ هـ / ١٤٥٣ م) على قيد الحياة ، إنه يندب احتضار الأندلس فى نزعاته الأخيرة من خلال كتابه « جنة الرضى فى التسليم لما قدر الله وقضى » ، حيث ورد على لسانه فى هذا الكتاب - كما ذكر المقرى فى « أزهار رياض » (جـ ١ ص ٥٠ وما يليها) - قوله : « ومَن استقرأ التواريخ المنصوصة وأخبار الملوك المقصوصة ، علِمَ أن النصارى - دمرهم الله - لم يدركوا فى المسلمين ثأراً ، ولم يرحضوا عن أنفسهم عاراً ، ولم يخربوا من الجزيرة منازلاً وديارا ، ولم يستولوا عليها بلاداً

جماعة وأمصاراً ، إلا بعد تمكينهم لأسباب الخلاف واجتهادهم فى وقوع الافتراق بين المسلمين والاختلاف » .

وغرناطى آخر قاض للجماعة أفرز أنّاته الجريحة حين نزول الأعداء تمرج غرناطة ونعنى به ابن الأزرق ، محمد بن على بن محمد الأصبحى (المتوفى ٨٩٦ هـ / ١٤٩١ م) ، فى قصيدة له يرى أنه لم يعد من رجاء إلاّ فى اللّه حيث يقول :

وكن راجعاً للّه فى كل حالة فليس لنا إلاّ إلى اللّه مرجع

(« نفح الطيب » جـ ٢ ، ص ٣٠٧ وما يليها) .

ودون أن نسترسل تفصيلاً فى ذكر مَن بكى على أندلسه الضائع ، التزاماً منا بما حددناه من إطار لنماذج على سبيل المثال لا الحصر ، وإلا سوف يدفعنا الحصر إلى البحث عن مَن أفرزوا أنّاتهم فى أعماقهم وهم يلاحظون المأساة دون أن يخطونها فى أبيات أو جُمل ، فقد خطتها القلوب الحزينة فى أعماقها ، والتقى فى ذلك مَن شاهد بداية التراجع مع مَن شاهد نهايته واندحار الأندلس من داخل أو خارج الدار ، من ابن رشيق إلى ابن فرقد ، وغيرهم الكثير ، لو توخينا الإحصاء والتقصى لانعكاسات هذه المأساة التى لم تقف أصداءها عند حد ومجال مَن عاشها فى أرضه ، وإنما شعّت وأشعت بهمومها لتغطى بلاد الإسلام جمعاء بدءاً بالمغرب المسلم المضيف ، وكيف بدوره رأينا من بين صفوفه مَن لا يكتفى بتقبل واستقبال هؤلاء الخاسرين الضائعين ، وإنما يشاطرهم الهموم والأحزان ، يكمل ببكائه بكاءهم ، ويغذى بدموعه نهر دموعهم .

لم تقف مشاعر المعاناة عند حد المورسكيين كمحور بعد الضياع ، وإنما التقى فى محيطها كل مسلم يشعر بكارثة الاندحار والضياع ، ومع هذا ، وفى هذا الجو الجدير بكل خشوع وانحناء أمام كل مَن غذى أرضه بدمائه الطاهرة ، نرى قلة ممن لم يكتفوا بالتنكر لها ، وإنما تنكروا لضمائرهم وإيمانهم ، يتباكون على الذى أضاعوه بأنفسهم . إننا لا نصنفهم فى ملء البكّائين النزهاء فى

عشيرته وأهله ورعاياه ، وإنما تطاول ليخادع الله .. ﴿ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ ﴾ (١) .

وهذا وزيره العربى العقيلى بدوره ، وهو محمد بن عبد الله ، يشير لنا المقرى (فى « أزهار الرياض » جـ ١ ، ص ٧٢ ومايليها) ، كيف تباكى على أندلس أضاعه بيده أمام الملك الوطاسى بالمغرب فى عرض ارتزاقى أسماه « الروض العاطر للأنفاس فى التوسل إلى المولى الإمام سلطان فاس » ، حيث جاء على لسانه من بين ما جاء عبر عبارات التسول والاستجداء قوله :

بك استجرنا ونعم الجار أنت لمن جار الزمان عليه جور منتقم

ولنا عودة فى ملحقات هذا الحوار لهذا الوزير المستجدى وملكه الضائع ، نوردها لما فيها من عبرة لمن يعتبر .

وقفنا قليلاً مع هذا الأنموذج لمن أطلقنا عليهم المتباكين ، ونسترسل فى تجوالنا الآن عبر بؤر الضياع بين البكّائين وذلك لنعرف ما أمكن وفى إطار هذه الإشارة المركزة ، بأمثلة ممن عانوا عمق المأساة ولم يتباكوا عليها ، وإنما ذرفوا الدموع الزكية تحت أنقاض أندلس النكبة مصممين وصامدين ، وليس لهم من وسيلة إلا قناعة الإيمان والإصرار على الهوية والانتماء ، وإن كانت جماعات منهم تحت ثقل وضغوط الغزاة وأمام موسوعة اليأس والطريق المقفول أن يقفزوا من تحت الأنقاض هاربين بدورهم لاجئين إلى أرض للهجرة والإيواء .

وهكذا اختلط ، فى المورسكيين ، الباكى فى عقر الدار مع المتباكى من خارج الديار ، باحثاً عن منقذ لما تبقى له فى الحياة كلاجىء فى بلاد الإسلام ، إما فى أقرب البقاع له ، أو جائلاً فى بقية البلاد المسلمة والأصقاع . وقد كان طبيعياً أن يكون لهذه المأساة أصداء فى مختلف الأرجاء الإسلامية بدءاً بأقربها كالتى أسهمت فى فترات مختلفة فى عملية الإنقاذ ، أو إيقاف التنفيذ لضياع الأندلس ،

---

(١) النساء : ١٤٢

عواطفهم المخلصين فى أنّاتهم ، وإنما هم زمرة من الضائعين المضيعين من الانتهازيين الوصوليين الذين يلبسون لكل موسم رداءه ، لبسوا رداء الخيانة ليلبسوا بعد ذلك رداء التسول والاستجداء ، وسنكتفى من هذه الزمرة بمثال ، هذا الملك الضائع آخر ملوك غرناطة ووزيره ، لنشير إليه قبل أن نكمل جولتنا فى بؤر الضياع بين ما تبقى من أمثلة للبكّائين المورسكيين قلب المأساة ومَن تداعى معهم عبر المشاعر الإيمانية والإخاء فى اللّه ، بدءاً من المغرب الأقصى وبقية بلاد الإسلام فى الماضى والحاضر على حد سواء ، حتى المتداعى مع الأندلس الذى تساكن فيه .

ونعود إلى آخر ملوك الأندلس المتباكى كبكاء الأطفال على مُلك لم يرعاه رعاية الرجال ، إنه محمد بن أبى عبد اللّه بن على بن الحسن بن سعد بن على بن يوسف بن محمد.الغنى باللّه النصرى ، وقد أطنبنا فى نسبه متتبعين له ، هذا النسب الذى لم يرع حُرمته ولم ينتصر له وهو النصرى مستشهداً فى سبيله ، وإنما هالكاً فى منفاه حيث وافاه الأجل (عام ٩٤٠ هـ / ١٥٣٤ م) فى فاس بعد معاناة وحرمان مورثاً لأعقابه ما تبقى من أسرته ، بدلاً من المجد والرفعة والجاه ، ذل التسول والمعاناة (كما شاهد ذلك صاحب نفح الطيب) - لقد التجأ ووزيره العربى العقيلى لأبى عبد اللّه الشيخ زعيم بنى وطاس بعد أن سلّم غرناطة الصامدة تسليم الخانعين مكتفياً بترديد شعارات تغطية الهزائم والنكبات ، وما أشبه اليوم بالبارحة ، فذكرت المصادر الكلمات الأخيرة التى كان يلوكها لسانه المتوسل المستسلم : « اللّه أكبر ، لا إله إلاّ اللّه ، محمد رسول اللّه ، ولا راد لقضاء اللّه ، تاللّه لقد كُتبَ علىّ أن أكون شقياً وأن يذهب المُلك على يدىّ » فما كان من جوق المرتزقة الخاسرين الملتفين حوله من رجاله إلا أن كرروا : « اللّه أكبر ، ولا راد لقضاء اللّه » .

صيحة التكبير ليس مكانها فى بؤر الاستسلام والضياع ، ولكن هى صيحة ساحة المواجهة والتعبئة والاستشهاد ، لم يكتف هذا الملك الضائع بمخادعة

كما هو الحال - على سبيل المثال - مع مغرب المرابطين والموحدين ، فلم يكتف المغرب المسلم بالمشاركة فى المواجهة وتدعيم مواكب الصمود والإصرار ، وإنما حتى بعد وقوع الكارثة شارك باستضافته ومشاعره الإيمانية فى تحمل آثار النكبة والمعاناة ، والحث على الجهاد لاسترداد ما افتقد ، فهذا البهلولى وهو أبو عبد الله بن محمد بن يحيى وقد كان على قيد الحياة (عام ٩١٠ هـ) ، يحث الوطاسى على استرداد ليس فقط الشواطىء المغربية وإنما الأندلسية (كما نقل لنا فى الاستقصا ، للناصرى ، الجزء الرابع ص ١١٢ ومايليها) حيث يقول فى مطلعها :

قـم للجهـاد رعاك الله منتهجا   نهج الرشاد إلى الأقوام لو فهموا
من بعد أندلس ما زلت محتدما   لو كان يمكنني في الليل أحتزمُ

وذاك الشاعر الذقون أحمد بن محمد بن يوسف الصنهاجى (المتوفى ٩٢١ هـ / ١٥١٥ م) وهو معاصر بدوره لهذه الأحداث يقدِّم لنا فى قصيدة طويلة تحمل تسمية « الموعظة الغراء » افتتحها بقوله نثراً : « إنه لما غابت شمس الجزيرة الخضراء لأخذ الحمراء ، قرعت باب الندبة لما تقدم من الصحبة» ليضيف بعد ذلك شعراً :

فالموت عندى خير من حياة فتى   قد اكتسى بعد عز ثوب إذلال

(« أزهار الرياض » ، للمقرى جـ ١ ، ص ١٠٤ وما يليها) .

ومثال آخر لمغربى مكناسى هو أبو عبد الله محمد بن عبد الوهاب بن عثمان (المتوفى حوالى ١٢١٤ هـ / ١٧٩٩ م) ، يتأسى بعد أن ساهم كسفير فى فك أسرى مسلمين لدى ملك أسبانيا كارلوس الثانى فى كتاب يحمل هذا الاسم « الإكسير فى إفكاك الأسير » (تحقيق محمد الفاسى ص ١٢٧ وما يليها) حين مشاهدته لمكتبة الاسكوريال وما فيها من مخطوطات عربية قائلاً : « فخرجت من الخزانة بعد أن أوقدت نار الأحزان بفؤادى ، ونادت بالثارات فلم يأخذ أحد بثأرها ، ياليتى لم أرها .... » .

وبدوره مفتى فاس ، وهو أبو محمد بن عبد الواحد البوعنانى ، المعاصر للمولى إسماعيل (١١٣٩ هـ / ١٧٢٧ م) يخاطبه حين فتح العرائش فى قصيدة جاء فيها :

أيا مولاى قم وانهض وشمِّر لأندلس فأنت لها الأمير

(« تاريخ سبتة » ، محمد بن تويت ، ص ١٩٦ وما يليها)

ولعل الموركسيين وقد تجسد فيهم وبهم المشهد الأخير قبل إسدال الستار على الفردوس المفقود ، بضياع ما تبقى من الأرض ، ودفن مَن تبقى تحت الأنقاض من الرجال وما أكثرهم ، بل ظل منهم مَن يجاهد محاولاً دون يأس أو قنوط لاستعادة كجيوب للمقاومة فى مناطق حول غرناطة لتنمحى رتستسلم عبر فترة تجاوزت الثمانين عاماً من الاحتضار لهؤلاء الرجال بعد الضياع ومطاردة مَن لُفظوا خارج الديار حتى لجوئهم إلى ديار الإسلام ، يمثلون بحق قلب المأساة ، فقد كانت الأحداث من القسوة عليهم إلى حد المحو والإلغاء أو فقدان المرجعية والانتماء .

وهكذا ظهرت لنا منهم فئة بكُائية مجهولة الهوية ، فيها الشعراء والمؤرخين وأصحاب الرسائل الموجهة إلى السلاطين : هذا شاعر مجهول نظم مؤرخة فى عام (٣٩٧ هـ / ١٤٩٢ م) ، عام النكبة ، يبكى فيها ضياع غرناطة وغيرها من البقاع الأندلسية .

ومؤلف مجهول يخط كتاباً بعنوان : « أخبار العصر فى انقضاء دولة بنى نصر » ، بعد سقوط غرناطة بخمسين عاماً ، وجاء فى نهاية ما خطّه من الأخبار (طبعة العرائش ١٩٤.) قوله : « عَمَّ الكفر جميع القرى والبلدان ، وانطفأ من الأندلس الإسلام والإيمان ، وعلى هذا فليبكى الباكون ، وينتحب المنتحبون ، فإنّا لله وإنا إليه راجعون » .

ومجهول مورسكى بدوره يتوجّه إلى السلطان بايازيد الثانى العثمانى برسالة نثراً وشعراً حوالى عام (١٥٠٥ م) ، يشرح فيها واقع المعاناة ، وقد مالت بعض

المصادر فيما يعنى هذا المجهول (مثال عنان فى « نهاية الأندلس » ص ٣٤٦) إلى أن يكون أندلسياً متنصراً يستغيث من المطاردة والعقوبات ، وأعزت مناسبة توجيهها إلى ما حدث عقب ثورة البشراة وما تلاها من قمع فى سنة (١٥٠٥ م) . بل ليست هى الرسالة الوحيدة التى وجهت إلى السلاطين فى هذا المضمار ، فهناك رسالات واستغاثات وصيحات لمجهولين يئنون تحت أنقاض الأندلس ، أو لاهثين فى ممرات الخسارة والضياع ، فضلاً عن المعلومين بأسمائهم من المورسكيين المهاجرين ، الفارين بدينهم إلى ما تبقى من ديار الإسلام ، كمثال : محمد بن عبد الرفيع بن محمد الشريف الحسينى الجعفرى المتوفى (١٠٥٢ هـ / ١٦٥٢ م) ، وقد آوى إلى تونس بعد الرحيل ، وألّف كتاباً بعنوان « الأنوار النبوية فى آباء خير البرية » ، يشرح فيه واقع المعاناة التى عاشها المورسكيون ، وتطبيقهم الخفى للشعائر الإسلامية رغم قساوة أعداء الدين وممارستهم للقهر والتسلط .

ومثال آخر لمورسكى مهاجر ، وهو أفوقاى أحمد بن قاسم الحجرى ، وقد ذُكِرَ أنه كان على قيد الحياة عام (١٠٤٦ هـ / ١٦٣٦ م) وكان رحيله إلى المغرب بعد مأساة الخروج من الأندلس ، ونجد أصداءً لهذه المأساة فى مؤلَّف له بعنوان « ناصر الدين على القوم الكافرين » ، وهو مختصر لرحلته « رحلة الشهاب إلى لقاء الأحباب » ، وهذا المهاجر إلى حد ما كان أفضل حالاً من بقية المهاجرين والمعانين حيث تولى السفارة متجولاً فى مختلف المناطق باسم السلطان السعدى ، وأثبت فى رحلته العديد من الأمور التى كانت معاصرة له آنذاك ، مما يجعل آثار المورسكيين المهاجرين وما كتبوه وما صوّروه ، بل وما قدّموه عن مأساة الأندلس جدير بكل اهتمام ودراسة ، خصصت لها العديد من المؤسسات : أسبانية وعربية على حد سواء ، مكانة متميزة فى ميدان البحث والتنقيب ، فهذا على سبيبل المثال معهد فرناندو الكاثوليكى بسرقسطة ينشر لنا أخيراً (عام ١٩٨٨) دراسة طويلة قام بها (Pans) عن المورسكى إبراهيم التجبيلى ، وهو من مواليد طليطلة ، طرد مع المورسكيين وكان عمره ثلاثين عاماً من

أسبانيا (عام ١٦٠٩ م) ، ورحل إلى تونس وله مخطوطتان ، إحداهما توجد فى أكاديمية التاريخ ، والأخرى فى المكتبة الوطنية فى مدريد ، يروى هذا المورسكى شهادته كطريد ، والظروف التى أحاطت بمأساته قبل رحيله بعد أن يأست المحاولات المتعددة من تحويله عن دينه وإلزامه بالمسيحية ، فلم تُحترم المواثيق الخاصة بصيانة حقوق المسلمين بعد سقوط غرناطة ، فتنكر فيليب الثالث لما وقَّعَ عليه ، كما تنكر فيليب الثانى من قبل فى نقضه للمواثيق ، وما كان من تقييد لحريات المورسكيين واضطهاد لهم ، بل لم يكتف بمطاردة وطرد البَشر ، بل طوردت اللُّغة العربية وطردت بمنعها وبشكل نهائى وإلزامى ، من التداول ، بل إلزام المورسكيين بزى النصارى ، وأن تكشف النساء عن وجوههن ، حتى الأفراح فرضت أن تكون بالطريقة المسيحية ومنع استعمال الأسماء والألقاب العربية ، حتى الحمَّامات العامة طولب بهدمها ، وكم كان غريباً أن يصل التطاول فى قهر الحريات إلى الشكليات فى حد ذاتها ، إذ مُنعت المورسكيات من تزيين أيديهن بالحناء !!

وهكذا عاش أبطال المحنة المورسكية قبل مأساة الطرد (عام ١٦٠٩ م) وما زالت هذه المأساة للمورسكيين تحظى باهتمام الباحثين - كما أشرنا - من العرب والأسبانيين سواءً بسواء ، تُنشر المخطوطات وتُعقد المؤتمرات للتعريف بما استجد حول هذه الفترة الرهيبة بعد ضياع الفردوس المفقود ، فنشير - ودائماً على سبيل المثال لا الحصر- إلى ما جاء فى بحث نُشِرَ حديثاً تحت عنوان « تطبيق المورسكيين الأندلسيين للشعائر الإسلامية (١٤٩٢ - ١٦٠٩ م) ، وهو خلاصة لأعمال المؤتمر العالَمى للدراسات المورسكية وما أُلقِىَ فيه عام ١٩٨٧ من بحوث حول ثورة المجاهد المورسكى سليم المنصور ، ومقاومة المورسكيين لمحاكم التفتيش ، والتطبيق الخفى للشعائر ، (ورحلة المورسكى الحجرى وقد أشرنا إليه سلفاً) .

وكم يبدو غريباً بل وملفتاً للنظر وداعياً للتأمل ، موقف الإسلام من الآخرين أمام موقف الآخرين من الإسلام ، وخير مَن يُجسِّد لنا هذه الغرابة ويُعمِّق لنا

طبيعة التأمل حول هذا المسلم الذى يغوص فى أعماق التخفى والتقنع ليمارس ما تبقى له من رموز تؤكد له هويته وإصراره على ذاته فى فترات تحجيمه وتقليصه أمام طغيان المنتصر والسائد والمسيطر ، وهذا المسلم من أجداده الذى كان وهو فى قمة إشراقه ومجده لا يقف عند حد السماح للآخر بمزوالة شعائره والاعتزاز بخصوصياته ، وإنما بسلوكه المتفتح السمح ، المعطاء ، يجعل هذا الآخر إن لم يك مندمجاً ومتكاملاً معه ، فعلى الأقل ساعياً إلى ربط مصيره بمصيره ، متأسياً على تراجعه فى الأندلس ، وكأنه يتأسى على ذاته ، وكمجرد مثال يُعطى فى هذا المضمار هذا الإشبيلى إبراهيم بن سهل (المتوفى ٦٤٩ هـ / ١٢٥١ م) .

وقد كان على الديانة اليهودية أولاً ، وعاش مع المسلمين وتأسلم وتعايش معهم ، وكان شاعراً من شعراء إشبيلية ووشاحاً ، فضّل الهجرة منها أثناء احتلالها من طرف الأسبان سنة (٦٤٥ هـ) راحلاً إلى سبتة ، والذى يعنينا ما جاء فى قصيدته عن إشبيلية حينما حاصرها الأسبان ، وفيها يحث أمراء العرب على إنقاذها ، جاء فى مطلعها :

يامعشر العرب الذين توارثوا بشيم الحمية كابراً عن كابر

إلى أن قال :

أنتم أحق بنصر دين نبيكم وبكم تمهد فى قديم الأعصر

يهودى تأسلم بمشاعره ، بل وتلاحمه ، يدق ناقوس تراجع الأندلس وارتداده كما دقّه شعراء وأدباء العرب ، وأعطينا العديد من الأمثلة لهؤلاء الباكين على أفول شمس الأندلس عبر مختلف مراحل التقلص والانكماش منذ سقوط الخلافة ، وعبر ما يزيد عن أربعة قرون ، حتى ضياع الرمز الأخير للصمود فى الأندلس ، غرناطة الحبيسة ، ربعمائة عام من البكاء انتهى لدى البعض فى النهاية إلى التباكى ، ولم يلتئم جرح الأندلس كفردوس مفقود ، فجاءت خمسة قرون بعد ذلك حتى يومنا هذا ، وما زلنا ننشد هذا الفردوس المفقود شعراء وأُدباء على ممر

العصور فى مشرق أُمة الإسلام ومغربها ، كل يعبر عن مشاعره الفيَّاضة نحو هذا الأندلس العريق ، هذا الأندلس الماضى فى الحاضر والحاضر فى الماضى ، كما بكاه منذ قرون الهوزانى وابن العسال حتى ابن عاصم وابن الأزرق ، مروراً بابن الأبار وابن الخطيب وغيرهم من المعاصرين له ، ها هو اليوم يبكيه معاصرون لنا أمثال أحمد شوقى وعزيز أباظة ، وغيرهما الكثير والكثير ، والقائمة تطول بنا لو توخينا الحصر والإحاطة .

لقد بقى الأندلس رغم افتقاده ، افتقدناه كأرض ولم نفتقده كتراث يسطع ويتألق كصفحة مشرقة فى تاريخ أمتنا بقلاع مجده المجسدة فى أبطاله من المجاهدين ، فاتحين مرابطين ، موحدين وصامدين ، كما هى مجسَّدة فى قلاع مجده من المجتهدين والمبدعين ، فقهاء وفلاسفة وأدباء ، برزوا فى الشعر والنثر على حد سواء ، وعلماء ورحَّالة ومؤرخين .

وسوف نتناول ، وفاءً منا لهذا الجانب المشرق من الأندلس - فى الصفحات التالية - قلاع المجد هذه عبر جولة فى أرجائها مؤكدين أن هذا الأندلس كما عرف بؤر الضياع التى آلت به إلى التراجع والانهيار والاندحار ، عرف قلاع المجد التى ظلت كتراث وحتى يومنا هذا ، معالم بارزة للمرجعية والإحالة ، ولنبدأ بجولتنا فى قلاع المجد مع الأبطال المجاهدين : فاتحين ومرابطين وموحدين وصامدين .

* * *